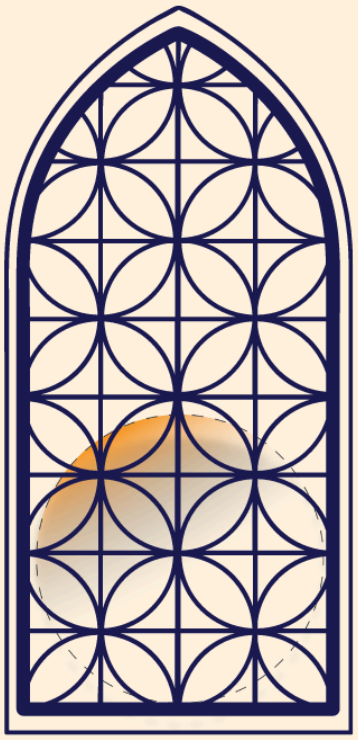

لقاءات التفسير الرمضانية

أ . أناهيد بنت عيد السميري

١٤٤٣ من الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

/https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزّ وجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء السادس عشر

الأحد 16 رمضان 1443

سورة طه الآيات (9 - 36)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله، توكلنا على الله...

اللهم اجعلها ساعة مباركة، خالصة لك، نأتمر بأمرك في العناية بهذا الكتاب العظيم الذي أنزلته على الرسول الكريم.

ما أنزلته إلا ليكون من السعداء (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ)[1] نسألك بمنّك يا رب العالمين وفضلك أن تجعلنا ممن آمن وصدق بهذا الكتاب، فنفعه هذا الإيمان والتصديق في دنياه، وفي حياته البرزخية ويوم يلقاك، اجعل هذه الساعة في موازيننا أثقل من الجبال الرواسي.

---

[1]() طه: 2-3.

نقف اليوم مع هذه السورة العظيمة التي تأخذ الألباب في حال التأمل في آياتها وأخبارها، خصوصًا وفيها نفي للشقاء، بعدما كنا قريبي العهد من سورة مريم، التي سمعنا فيها نفي الشقاء أيضًا (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)[2]، (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)[3]، (وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)[4] كان هذا في سورة مريم وهي قريبة العهد بالترتيب من سورة طه.

فبدأت سورة طه بهذا الخبر العظيم: (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ).

وفي سورة طه تأتي قصة آدم أيضًا وفيها خبر من رب العالمين عن الشيطان الرجيم: (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ)[5] ويبيّن رب العالمين أن مقصده أن يخرجهم من الجنة (فَتَشْقَىٰ) مقصد الشيطان أن يقع الإنسان في الشقاء.

ثم لما هبط آدم وحواء إلى الأرض التي هي مستقرهم، فقد كانوا في السماء في الجنة يتعلمون درسًا عظيمًا عن أنفسهم وعن عدوهم، فلما نزلوا إلى الأرض بيّن رب العالمين: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ)[6] أمر

---

[2] () مريم: 4.

[3] () مريم: 32.

[4] () مريم: 48.

[5] () طه: 117.

[6] () البقرة: 38.

عظيم! الشقاء والهرب منه طبيعة إنسانية لا يلام عليها أحد، بل رب العالمين بيّن السعداء والأشقياء، كما في سورة هود: (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)[7] بيّن أن هناك أشقياء وأن هناك سعداء ليهرب الناس من الشقاء وتمتلئ قلوبهم رغبة في السعادة، فيأتي القرآن ويكون طريق السعداء.

هذه السورة العظيمة يأخذ مطلعها بالألباب، مطلع عظيم من كلام رب العالمين، كيف لا وهو يقول لرسوله -صلّى الله عليه وسلّم-: (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ) ثم يخبر عن هذا الكتاب العظيم أنه (تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى) هذا الكتاب العظيم تنزيل من رب العالمين، أفلا تعظمونه وتأخذون منه زادًا لكم؟!

- إن هذا القرآن نزل من عند الرحمن الذي على العرش استوى.
- هذا القرآن نزل من عند من (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ).
- هذا القرآن نزل من عند رب الأرض والسماء الذي هو واسع العلم -سبحانه وتعالى- علم السر وأخفى، فما بالك بالجهر! (وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى).

---

[7] () هود: 105.

- هذا القرآن نزل من عند الله الذي يحدثنا عن نفسه -سبحانه وتعالى- (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) هل يكون بعد ذلك شقاء بالله أو بالقرآن؟! لا والله لا يكون شقاء لا بالقرآن ولا بالله.

ولذا من أعجب ترتيبات المصحف هذا الترتيب الذي بين مريم وطه، فإن في سورة مريم نفي الشقاء على ألسنة الأنبياء، نفي الشقاء في عبادة الله (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا)، (وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)، (عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا) نفي الشقاء بعبادة الله.

ثم تأتي طه ويأتي أيضًا فيها الشقاء مذكورًا ثلاث مرات كما في سورة مريم، وفيها بيان عظيم ما الطريق لتكون مثل أولئك الأنبياء الذين لم يكونوا بطاعة الله أشقياء، وإنما كانوا من السعداء؟

إنه متابعة القرآن وتجنب العدو الذي يريد للخلق الشقاء (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ) كان هذا خاتمة الكلام عن الشقاء.

ومن تتبع هذه الكلمة في القرآن وجد فيها عجبًا، فإن أول استفتاح الخبر كان في سورة هود أن الناس شقي وسعيد، ثم تأتي مريم وطه بهذه الأخبار العظيمة، ثم إلى آخر المصحف نجد في سورة الأعلى وسورة الليل الأخبار عن هؤلاء الأشقياء، نعوذ بالله من الشقاء.

مطلع هذه السورة يأخذ بالألباب عندما تسمع عن هذا القرآن وأنه ما نزل للشقاء وإنما نزل للسعادة، ولتكون على طريق السعداء وتتجنب طريق الأشقياء.

ثم يأتي نموذجًا بديعًا عجيبًا، نموذج يحب الله منا أن نتأمله ونتفهمه وهو حال من أحوال أولي العزم من الرسل؛ خبر عن موسى -عليه السلام- وعن منّة الله عليه وتفضله عليه بالرسالة، وتفضله عليه بأسباب السعادة، وكيف أن رب العالمين يحدّث موسى عن نفسه -سبحانه وتعالى-، فأيّ موقف هذا كان الذي كان فيه موسى -عليه السلام-! أيّ موقف هذا الذي حدّث الله -عزّ وجلّ- فيه موسى -عليه السلام- حديثًا عظيمًا لا يشابهه حديث!

نقرأ من الآية: (9) إلى الآية: (36) ونبيّن في اللقاء ما يتيسر من هذه الآيات بإذن الله:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (9) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ

هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (16) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (36))

هذه الآيات الكريمات التي استمعنا إليها تحكي هذه القصة من جهة عجيبة بديعة تجعل الإنسان المؤمن يزداد إيمانًا بعظمة الله وبكبريائه وجلاله، وبرحمته ورأفته بعباده، فانظر كيف يرسل الرسل للخلق علهم أن يعودوا إلى الحق ويكونوا بدعاء ربهم سعداء وأن ينتفي عنهم الشقاء، فيخاطب الله -عزّ وجلّ- نبيّه، بعد أن عرّفه بنفسه -سبحانه وتعالى- وأخبره أن هذا القرآن لم ينزل ليشقى، بل هو تنزيل من الرحمن، فأكيد أن كل الرحمات فيه.

فيخاطبه خطابا لطيفًا مستفهمًا:

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ)

وهذا الاستفهام مستعمل للتشويق لهذا الخبر، ليس للاستفهام على حقيقته، اسمع خبرًا عظيمًا، خبر حديث موسى وما كان معه لما عاد من مدين إلى مصر، إلى مكان أهله وإلى مكان وجود عدو الله فرعون، كيف أن الله قدّر قدرًا -سبحانه وتعالى- ليحصل هذا الأمر العظيم، وهو أن يحدِّث الله العظيم الكريم هذا العبد الذي اصطفاه، هذا العبد الذي رباه على عينه -سبحانه وتعالى- (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)[8] هذا العبد الذي اصطفاه الله، موسى -عليه السلام- كان هذا الحدث معه.

(إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى)

هذا الحدث يمكن أن يكون في أوله شيء من الشر؛ لأنه مما يذكر أن موسى -عليه السلام- لما عاد من مدين إلى مصر تاه في الطريق، فرأى نارًا، وهذه النار -كما سيتبين بعد ذلك- إنما كانت دليل يوصله إلى رب العالمين، فكانت هذه اللحظة هي مبدأ سعادته، ومنشأ نبوته، رغم أن بدايتها ضلال في الطريق، والبرد أصابه، ولم يكن معه ما يستدفئ به في سفره، فرأى هذه النار وكان هذا الموقف العظيم الذي به السعادة كلها.

---

[8]() طه: 41.

فقال لما رأى النار لأهله: (امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا) بمعنى أبصرت نارًا، وكان ذلك في جانب الطور الأيمن، ولما قال هذا كان قد أبصرها إبصارًا بيّنًا لا شبهة فيه، وبالنسبة لرجل متحمل مسؤولية أهله معه، وضل الطريق وكانت ليلة شاتية، فهذا كله يجعله شديد التبيّن، شديد الحرص على ألا يتصرف بصورة خاطئة فقال: (إِنِّي آنَسْتُ نَارًا) أبصرتها إبصارًا بيّنًا لا شبهة فيه.

(لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ) بشعلة مقتبسة ويحصل لكم أن تستدفؤوا بها.

(أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) هاديًا يدلّني على الطريق، وفي الأصل كان مطلبه النور الحسيّ والهداية الحسيّة، لكنه وجد شيئًا عظيمًا، وجد شيئًا فوق مراده، فانقلب هذا الموقف الذي كان ظاهره الشر، إلى كل الخير والسعادة!

فوجد ثمّ النور المعنوي، نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب، وجد الهداية الحقيقية، هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم.

فحصل له أمرًا لم يكن في حسبانه ولا خطر على باله، فسبحان ربنا العظيم، سبحانه ما أكرمه، ما أعظمه، ما أعظم نعمه على خلقه، فلا يدخل اليأس أبدًا إلى قلوب الخلق ولا يدب إليها أبدًا من الشيطان وساوس تمنع الإنسان أن يكون سعيدًا بربه.

فليكن العبد في غاية الطمأنينة لرب العالمين، وليكن العبد في غاية الرجاء، فما عند الله إلا الخير «والشَّرُّ ليس إليكَ»[9] نعم! الشر ليس إليك يا رب العالمين.

فأتى هذا الموقف، فلما أتى للنار التي آنسها من بعيد وكانت في الحقيقة نورًا، وهي نار تحرق وتشرق، ودلّ على ذلك قوله -صلّى الله عليه وسلّم- : «حِجابُهُ النُّورُ»[10] وفي رِوايَةٍ: «النَّارُ، لو كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجْهِهِ ما انْتَهَى إلَيْهِ بَصَرُهُ مِن خَلْقِهِ»[11] -سبحانه وتعالى-.

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ)

فلما وصل إليها نودي منها (نُودِيَ يَا مُوسَىٰ) ناداه الله مثلما في مريم (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا)[12].

وقف موسى -عليه السلام- بين يدي الله فقال له رب العالمين:

(إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

(إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) ما أعظمها من حالة عظيمة لا يمكن لبشر أن يصفها، كيف حين يكون عبدًا ويناديه الرب المحسن إليه بالخلق والرزق، وكل المنافع.

---

[9]() صححه الألباني.

[10]() أخرجه مسلم (179).

[11]() أخرجه مسلم (179).

[12]() مريم: 52.

فأمره -عزّ وجلّ- أن يستعد ويتهيأ لمناجاته في تلك اللحظة ويهتم لذلك، وهذا كما يفعل بحضرة الملوك أدبًا، فيراعي الأدب بتعظيم الله، واحترامه وتقديسه -سبحانه وتعالى- وتنزيه النفس عن الخبائث مثل تنزيه البدن عن النجاسات، فقال له رب العالمين: (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ) لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، فما سبب تقديسه؟

يقال: لو لم يكن من تقديسه إلا أن اختاره الله لمناجاة كليمه موسى لكفى! (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) قال أهل العلم:

إن "(طوى) اسم لهذا الوادي" وقد كانت قدسيته من كلام رب العالمين مع موسى فيه، لكن أكثر من ذلك ليس له عند الخلق مكان، إنما هو مقدس مطهر بأن الله اختاره لكلام موسى فيه.

ثم قال رب العالمين لموسى -عليه السلام-:

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ)

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ) هذا خبر بالاصطفاء وهذه أكبر نعمة ومنّة أنعم الله بها عليه، الاصطفاء بالنبوة، بل الاصطفاء أن يكون كليمًا لله، يا له من شأن! وكل اصطفاء واختيار من رب العالمين لا بد أن يقابله شكرًا يليق به.

فقال له رب العالمين: (فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ) للذي يوحى، ألقِ سمعك فإنه أمر عظيم لأنه أصل الدين ومبدأه وعماد الدعوة: التوحيد، وهذا كله إنما ينظر إليه المؤمن على أنه جزء من الإيمان بالرسل، وينظر إليه أيضًا على أن هذا الدرس الذي نسمعه عمّا حصل مع موسى -عليه السلام- لا بد أن يكون له عندنا آثار، وآداب، وأمور نتعلمها، فالاستماع لما يوحى سيبقى بعد موسى لكل مؤمن آمن بالنبي محمد -صلّى الله عليه وسلّم-، كما نزل الوحي على موسى -عليه السلام -نزل الوحي على النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، وأُمر موسى -عليه السلام- أن يستمع للوحي ونبيّنا -صلّى الله عليه وسلّم- كذلك أُمر، وكل من يقرأ القرآن مأمور بأن يستمع إلى الوحي ويجمع قلبه عليه ولا يشتت نفسه، يستمع بأذنه الجارحيّة وبأذنه النفسية فيكون متبعًا، فماذا سمع موسى -عليه السلام-؟

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

استمع لهذا البيان العظيم (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ) الاسم العلم، الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، المستحق لأن يكون الإله المحبوب المعظم، لما له من الأسماء الحسنى والصفات العلا، وفي مطلع السورة قال تعالى: (مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (3) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ

الثَّرَىٰ) إلى أن نقرأ: (اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) فاسم الجلالة، الاسم العلم يتضمن كل الأسماء الحسنى لأن معنى اسم (الله) أي: المستحق للتأليه لما له من كمال صفات، لما له من عظيم إنعام، لما له -سبحانه وتعالى- من الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، الله: ذو الألوهية المستحق للمحبة والتعظيم.

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا) يخبر الله -عزّ وجلّ- موسى أنه الإله المتفرد بالكمال الذي لا شريك له ولا مثيل له ولا كفؤ له ولا سَمِيّ له، فاختاره الله ليسمع هذه الحقائق: (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا).

فإذًا ماذا تفعل إذا عرفت أن الله هو ذو الألوهية، المستحق لأن يكون إلها، المستحق للمحبة المطلقة والتعظيم المطلق، ماذا تفعل إذا عرفت أنه كامل الصفات مستحق للمحبة المطلقة والتعظيم المطلق؟

لا بد أن يكون ذو العبودية، المستحق لأن تعبده، لأن تتعلق به، وتفزع إليه، وتسأله، وترجوه وتخافه، وتسعى إلى رضاه؛ لذلك قال له: (فَاعْبُدْنِي) بجميع أنواع العبادات؛ ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها.

إذًا لا بد أن نعرف هذا المعنى المهم ونحن نعلم أبناءنا التوحيد والإيمان، بل ونحن نفسنا نتعلم أن مبدأ الأمر: معرفة

الله وعظمته وجلاله (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا) فالنتيجة: (فَاعْبُدْنِي).

إذا كان العبد متجردًا من الهوى، صادقًا في طلبه للصراط المستقيم، صادقًا في طلبه للحق، فلا بد أن يعرف أنه لا أحد يستحق أن يتذلل بين يديه ولا ينكسر عنده ولا يفتقر له، لا أحد يستحق هذا إلا الله، كل الفقر إليه، وكل الفزع إليه لما له من كمال صفات لا يشاركه فيها أحد.

من هذا الذي يستحق أن تكون منكسرًا بين يديه وذليلًا له! مَن مِن هؤلاء الخلق المخلوقين المفعولين! (مخلوق)...اسم مفعول والله هو الخالق، لا أحد يستحق إلا رب العالمين (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا) أما في زمن موسى ما هو حاصل من تأليه لفرعون ومن تعظيمه، ومن تعظيم مَن تحته، ومن الذل لهم، فهذا كله باطل (فَاعْبُدْنِي) إذا عرفت هذه الحقيقة تأتي العبادة.

وهنا ما نريد أن نشير إليه؛ الأمر لا بد أن يكون بهذا الترتيب الدقيق، نبذل جهودنا في السنين الأولى من أعمار أبنائنا أن نغذيهم بمعرفة الله؛ لطفه وقدرته ورحمته وعلمه -سبحانه وتعالى- وأن يكون هذا العلم عن الله هو مبدأ الأمر بالعبادة.

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي) الفاء للترتيب، اعرف مَن هو الله لتحصل منك العبادات، فإن معرفة الله تُلقى في قلوب الخلق كالبذور.

ثم تأتي العبادات وتأتي الأقدار التي يكون في ضمنها العبادات، يمرض الإنسان، يحتاج إلى مال، يحتاج الإنسان إلى نجاح، إلى أي شيء في الحياة فيجد أنه يمارس العبادة أثناء حاجاته الدنيوية، فيفزع إلى الله فتنمو بذرة معرفة الله.

فإذا عرف سورة الإخلاص، هذه السورة العظيمة التي هي ثلث القرآن، عرف أنه لا يوجد إلا واحد فقط هو الذي يُصمد إليه، ويُسأل ويُرجى، واحد فقط هو الذي بيده كل الملك، وأيّ ضر يمسك لا يرفعه إلا هذا الواحد -سبحان وتعالى-. فإذا عرف هذا كعقيدة، كبذرة في داخله، فحين تأتي المواقف والأحداث التي تمر به:

- يجد نفسه فزعًا إلى هذا الواحد وحده.
- يجد نفسه متعلقًا بهذا الواحد وحده.
- يجد نفسه مناقشًا لنفسه؛ أطرق باب مَن؟ هذا عبد مثلي؟!

أطرق باب مَن إذا منعني الله؟ كل هؤلاء لن يكونوا شيئًا، وتأتي الأيام والمواقف والأحداث سلبًا وإيجابًا، فمرة يقوى هذا الاعتقاد ومرة ينقص فيها هذا الاعتقاد، فالمرة التي ينقص فيها هذا الاعتقاد يربيه الله فيزداد يقينًا، فتكون بذرة

العقيدة في نفس الإنسان مثمرة لثمرات خير بما يمر عليه من أحداث فيكون في داخلها من العابدين وخاصة عبادة الصلاة (فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) هذا معنى من أعجب المعاني في الصلاة، (اللام) هنا للتعليل، يعني: أقم الصلاة لأجل ذكرك إيّاي، لأجل هذه الغاية.

ولذلك، ونحن في هذا الشهر المبارك فليكن أحد أهم مقاصدنا: أن نجمع قلوبنا في صلواتنا ولنبدأ في ذلك بالفرائض، ثم نلحقها بالنوافل، فليكن أكثر شيء نركز عليه: **أن نقيم الصلاة لذكر الله**، لأن الصلاة أصلًا أقيمت لذكر الله (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)[13] أي: ومقصد ذكر الله أكبر من أي مقصد.

فذكر الله أجلّ المقاصد، وذكر الله هو عبودية القلب، وذكر الله به ينتفي الشقاء وتكون السعادة، فالقلب المعطل عن ذكر الله معطل عن كل خير، والحقيقة أنه خرب غاية الخراب، فلنعلم هنا أن الله خصّ الصلاة (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) لأنها من أعظم العبادات التي تدل على ثقة العبد في الله، من أعظم العبادات التي تدل على معرفة العبد لربه، فانظر لهذا العبد وهو يكبر الله، ويعلن أن لا أكبر من الله في نفسه وعقيدته،

- الله أكبر من كل شيء.
- الله أكبر من هذه الدنيا وما فيها من خيرات.

---

[13]() العنكبوت: 45.

- الله أكبر من هذه الهموم.
- الله أكبر من كل ما يخافه الإنسان ويحذره.
- الله أكبر من كل الأماني التي يتمناها، من كل الأموال التي يملكها، أكبر من كل شيء إطلاقًا.

انظر للمؤمن وهو يذكر ربه ويقول: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) نعم! الحمد كله لله والثناء كله لله.

انظر للمؤمن وهو يقول: (الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) سبحانه، رحمته وسعت كل شيء ووصلت لكل حي، وصلت للأحياء والأموات حتى في قبورهم، شيء عظيم.

انظر للمؤمن وهو راكع ساجد يتقرب لرب العالمين (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) عبادة من أعظم العبادات؛ تنبئ عن معرفة العبد لله.

في هذا الخبر العظيم يأتي أمر غاية في الأهمية وهو الدافع الدائم الذي يدفع الإنسان للسعي:

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ)

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ) لا بد من وقوعها.

(أَكَادُ أُخْفِيهَا) ولهذه الآية معانٍ قد تكلم فيها أهل العلم ومن أحسنها "أن الله -سبحانه وتعالى- يبيّن مقدار خفائها".

(أَكَادُ أُخْفِيهَا) بمعنى أن الخلق جميعًا لا يعلمونها وأنه -سبحانه وتعالى- قد أخفاها إخفاء عظيمًا، وقد قيل في معانيها أقوال كثيرة، لكن هذا مجمل القول؛ إن الله يخفيها إخفاء عظيمًا.

والمعنى أن الله -عزّ وجلّ- يكاد يخفيها فلا يذكرها البتة لأنه -سبحانه وتعالى- يريد من العباد أن ينتفعوا بالحقائق إليه، إلا أن في إجمال ذكرها حكمة، وهي: اللطف بالمؤمنين لحثّهم على العمال الصالحة.

فلنعلم أن من رحمة الله أن يذكرنا بلقائه، وإلا لو أخفاها تمامًا وترك الأمر لما فطرنا عليه من أنه لا بد من لقاء الله؛ لضعفت النفوس ضعفًا عظيمًا! لكن هذا من لطف الله، لحثّنا على الأعمال الصالحة ولقطع أعذار المعتذرين بعدم العلم.

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى) هذه هي الغاية، الغاية أن يكون في هذا اللقاء برب العالمين يوم القيامة الجزاء، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

وقال رب العالمين لرسوله موسى، ولكل من سمع هذه النصيحة العظيمة:

(فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ)

هذا أمر في غاية الأهمية، الإنسان يحيط به كثير من السفهاء الذين خسروا أنفسهم، فيكون في قلوبهم شك ويسعون

إلى التشكيك ويجادلون بالباطل ويتكلمون فيما لا يعلمون، ويصدون المؤمن (مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا) يصد المسلم، (مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا) اتبع هواه فتكون النتيجة: أن تردى! ولنعلم أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجمع الغفير من الخلق والسبب: اتباع الهوى.

فلا يهول المؤمن كثرة هؤلاء ولا عِظم سوادهم، لا تجعل الكثرة مزلة قدم لك، ولنعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة، فإنهم بلا برهان ولا تدبر، وإنما هم أتباع للهوى.

هذه الآية تحثنا حثًا عظيمًا على العلم وعلى الاجتماع بأهل العلم، وتجعل مقياس الصحبة: أن يكون هذا الصاحب متذكرًا للدار الآخرة، ومُذكرًا للدار الآخرة، وغيرهم سيصدوكم عن اتباع الطريق ويحملونكم على متابعة الهوى.

هذه الأخبار العظيمة التي أخبر الله بها موسى -عليه السلام- أتى وراءها درس عملي غاية في العجب، ولتكن القلوب حاضرة لفهم هذا الدرس الذي يزيد من نماء شجرة الإيمان.

فلنسمع ما يقول الرحمن الذي استوى على عرشه وأحاط بخلقه علمًا ورحمة، يقول لموسى، يسأله:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

يسأله وهو العليم بالسر وأخفى، في أول السورة قال: (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى).

فيسأله رب العالمين: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى) يريد رب العالمين أن يبيّن لهذا الرسول الكريم حقيقة أنه لا إله إلا الله، فيأتي موسى -عليه السلام- ويعرف هذه التي بيمينه تعريفًا يبيّن تفكيرنا جميعًا:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ)

(عَصَايَ) هذه الإضافة يعني ملكي، كأنه يقول: (هذه عصاي التي لا تعصيني، أنا أتصرف بها) وذكر تصرفاته بها الدالة على تمكنه التام منها.

وهذا شعورنا جميعًا نحو ما نملك أننا متصرفون بها وأننا عليها قادرون وبها منتفعون، فذكر منفعتين:

- (أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا) أعتمد عليها القيام والمشي فتحصل بها المعونة.
- ومنفعة للبهائم (وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي) ولي فيها مآرب أخرى.

هذا كله أمر واضح ومفهوم لكن تصور هذا السؤال من رب العالمين، وهذه الإجابة من موسى -عليه السلام- وتصور كيف أننا نحن جميعًا سنقول مثل هذا القول إن سئلنا عن شيء

لنا سنقول: (ملكنا وننتفع به في كذا وكذا). لكن رب العالمين يبيّن لموسى -عليه السلام- أن الملك كله لله، والأمر كله لله، وأن إضافة التمليك التي في الدنيا لا بأس أن تكون بينكم كلغة تتفاهمون بها لكن كحقيقة لا ملك ولا تدبير لك، إنما الملك والتدبير لله وأنت عبد لله.

(قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ)

تخيّل...(عَصَايَ) التي أعرفها حق المعرفة وأستعملها في كل شؤوني، (أَلْقِهَا يَا مُوسَى) لكي تعرف الحقيقة أن الملك لله والأمر لله، والتدبير لله (فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) انقلبت بإذن الله ثعبانًا عظيمة، وكل هذا من البراهين الدالة على عظمته، من البراهين الدالة على تدبيره لشأن خلقه وأن الأمر له -سبحانه وتعالى-.

(فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) فولّى موسى هاربًا، خائفًا ولم يعقب، وكلمة (تسعى) هنا أتت لكي لا يظن أحد أنها خيال، بل هي حقيقة تتحرك، فهذه العصا تحولت بأمر الله إلى حية.

فيبيّن -عزّ وجلّ- لموسى -عليه السلام- عظيم قدرته وملكه فقال -عزّ وجلّ-:

(قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ)

(خُذْهَا وَلَا تَخَفْ) الخوف الطبيعي لا يلام عليه الخلق، فعلل رب العالمين لنبيّه موسى سبب عدم الخوف. كيف يقول: (وَلَا تَخَفْ) وهي حيّة عظيمة تسعى؟

فقال له: (سَنُعِيدُهَا) بعظمته -سبحانه وتعالى- سيعيدها، خذها وحين تأخذها ستعود فلا تخف، ليس عليك منها بأس (سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ) طريقتها وهيأتها الأولى، عصا كما كانت، فهذه آية بيّنة على تصرفه -عزّ وجلّ- في كل شيء، وأنه على كل شيء قدير إطلاقًا، وبكل شيء عليم إطلاقًا.

فبيّن له -عزّ وجلّ- أنه في حقيقة وليس في وهم، وأن الذي يخاطبه هو رب العالمين الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا.

فنزلت عليه السكينة وبلغت به الطمأنينة حدًا عظيمًا، فأعطاه الآية الأخرى:

(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ)

وهي أن يضم يده إلى جناحه، يعني أن يدخل يده في جيبه ويضمها على عضده من جهة قلبه (تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) من غير عيب ولا برص، بيضاء بياضًا كالشمس يتعجب لها، هذا البياض ليس بياض من أثر مرض، إنما بياض من غير سوء، فكيف هذا البدن الذي هو ألصق ما يكون بنا كيف يتحول ويكون بهذه الصورة العجيبة، كل هذه

أدلة على أن (عصاي، يدي) كلها ملك لله، كلها نافذ فيها أمر الله.

وانظر إلى التدرج: العصا أولًا، عصاي التي أضافها إلى نفسه ملكًا، وهو على ذلك لا يلام، لكن تصور هذه العصا كيف نقلها الله من حال إلى حال، دليل على أنه مالك الأملاك، كل من له ملك فليعلم أن الملك لله.

ثم لم تكن الآية فقط في العصا التي هي منفصلة عنه، شيء عجيب، كانت الآية حتى في اليد التي هي متصلة به (وَاضْمُمْ يَدَكَ) يدك أنت التي تظن أنها من أجزاء بدنك وملك لك، إنها ملك لله! تخرج بيضاء كالشمس، يتعجب منها، من غير برص ولا مرض ولا غيره.

(آيَةً أُخْرَىٰ) وكل هذا فيه ما فيه من الطمأنينة، كل هذا يري الله موسى من آياته الكبرى فيطمئن اطمئنانًا عظيمًا:

- انقلاب العصا حية تسعى.
- وخروج اليد بيضاء للناظرين.

كل هذا لأجل أن يريه الله -عزّ وجلّ- آياته الدالة على صحة الرسالة وحقيقة ما جاء به، فهو يدخل إلى فؤاده تمام اليقين بعظمة رب العالمين، وأنه على كل شيء قدير، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، فيطمئن قلبه ويزداد علمه وثقته بالله بأن يحفظه وينصره، وتكون هذه حجة لمن أرسل إليهم.

وبعد ذلك حصل التكليف:

(اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ)

فكان أول فزعه إلى الله الذي يملك كل الملك كما يملك هذه العصا فيحولها كما شاء، وهذه اليد جعلها بيضاء، يملك هذا الصدر للانشراح.

(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي)

وسّعه وافسحه يا رب العالمين لأتحمل ما سيكون، رب اشرح لي صدري من أجل أن أقدم على هذه الأمور ولا أستصعبها، ولا يتكدر خاطري من أقوالهم وأفعالهم؛ لأنه إذا ضاق الصدر ما صلح الإنسان لأي شيء؛ لذلك الشيطان دائمًا حريص على أن يوسوس للإنسان وعلى أن يجعله في ضيق من شأنه، ولولا فسحة الأمل ما كان العيش، ولولا حسن الظن بالله ما تقدم الخلق في شيء، خصوصًا في المواقف العسرة؛ لذلك تجد أهل الكفر وأهل النفاق وأهل ضعف الإيمان يتمنون الشر لأنفسهم، بل يصلون إلى حد أن يقتلوا أنفسهم، نعوذ بالله.

(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي)

فطلب من رب العالمين هذه الأمور، وفي هذا دليل على أنه أول ما كُلف فزع إلى الله، كلفه الله، نعم! لكن لا نستطيع أن ننفذ أي شيء من أوامر الله إلا بالفزع إلى الله، فدعا هذه الدعوات العظيمة بشرح الصدر وتيسير الأمر وهو سيخاطبهم، فيطلب من الله أن يحلل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وطلب في هذا الموقف العظيم أن يكون له وزيرًا من أهله هارون، وأن يكون سببًا لشدة أزره، يعني قوته، وفي إشراكه في أمره، كل هذا ليصل لأمر عظيم، أمر غاية في الأهمية وهو:

(كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا)

قد علّمه رب العالمين أن إقامة الصلاة للذكر فأراد موسى عليه السلام أن يكون معه من يؤازره في ذلك، خصوصًا وأن رب العالمين قد حذره ألا يصده من لا يؤمن بالآخرة ويتبع هواه، فأراد موسى في هذا الموقف العظيم، وفي هذا التكليف العظيم، أن يكون له من يساعده ويتعاون معه على البر والتقوى، فيكثروا من ذكر الله والتسبيح والتهليل وغيرها من أنواع العبادات.

الحمد لله الذي علّمنا هذه الأخبار العظيمة التي تزيدنا إيمانًا بعظمة الله وبجلاله وبرسله وبأنبيائه وتزيدنا سيرًا على الصراط المستقيم.

اللهم اجعلنا من المؤمنين الصادقين، الفزعين إليك في كل حين، الذاكرين، المبتهجين بذكرك، السعداء بشكرك، الراجين رضاك يا رب العالمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.